

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:
فإن الله بعث نبيّه محمداً ﷺ بالهدى، ودين الحق، ليظهره على الدين كله. فالهدى: هو العلم النافع. ودين الحق: هو العمل الصالح. وقد ضمن الله ما أنزل على نبيّه من البيّنات، هذين الأمرين، فاحتوى كتاب الله ﷻ على كل ما يحتاجه الناس في أمر معاشهم، ومعادهم؛ من العقائد، والشرائع، والأخلاق، والآداب، فكان فيه غنية وكفاية.
وقد جعل الله كتابه آية خالدة، ومعجزة باهرة إلى يوم القيامة. وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) متفق عليه^(١)، فهذا القرآن العظيم فيه الخير، والبركة، والصلاح، والفلاح، والنجاح، لهذه الأمة، ولجميع العالمين، إلى يوم القيامة.

وقد امتن الله على عباده المؤمنين بإنزال هذا الكتاب، وامتن على نبيّه بذلك وشرفه به فقال تعالى: **[تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١]** [الفرقان: ١]، وقال تعالى: **[اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَتْلُو صَوْتًا مِثْلُ مَرْتَلٍ وَمَنْ تَلَّوْهُ يَتَذَكَّرُ إِلَى نَفْسِ رَبِّهِمْ لَمْ يَلْمِهُمْ لَوْمَةٌ مِنْ تَلْوِينِ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٢٣]** [الزمر: ٢٣]، وأقسم الله تعالى به في غير ما موضع، في كتابه؛ تعظيماً لشأنه، وتفخياً له، ولم ينزل الله تعالى كتابه لأجل أن يُترنم بذكره، ويُتغنى به، فحسب، وإن كان هذا مراداً مقصوداً، ولكن أنزله ﷻ لما هو أعظم من ذلك؛ لتدبره وتعقله، قَالَ تَعَالَى: **[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢]** [يوسف: ٢] وقال سبحانه: **[كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢٩]** [الأنعام: ٩٢].

ففي القرآن العظيم بركة في تلاوته؛ لما يحدثه في نفس تاليه من السكينة والطمأنينة؛ لأنه أعظم ذكر لله، وقد قال تعالى: **[الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨]** [الرعد: ٢٨].

^(١) صحيح البخاري (٤٩٨١)، صحيح مسلم (١٥٢).

وكم من إنسان قلق، متوتر، فتح دفتي المصحف، ورطب لسانه بتلاوة آي الكتاب، فانقضت عنه سحائب الهموم، والغموم، وانجلت عن ناظريه الغشاوة، وعن أذنيه الوقر، وعن قلبه الأكنة.

وهو مبارك أيضاً فيما تضمنته من العلوم النافعة، وأعظم ما فيه من العلوم: العلم بالله ﷻ. فلا سبيل لنا إلى العلم بالله تعالى، إلا فيما أودعه في كتابه أو نطق به نبيه ﷺ، فقد تضمن من أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، الشيء الكثير، مما لا يخفى، فيحصل للقلب من تدبر هذه المعاني الجليلة في أسماء الله وصفاته، وأفعاله، ما يقع به تعظيم الرب وخشيته ومحبته ورجائه وسائر ما يتنعم به القلب من العبادات القلبية الباطنة.

وأودع الله تعالى فيه أيضاً من الشرائع العادلة مما يحتاجه الناس، في عباداتهم، وفي معاملاتهم، وفي معاشرتهم لأهلهم ما لا يبقى معه إشكال، فلم يدع شاذة ولا فاذة إلا وترك لنا منها علماً.

وهو مبارك أيضاً في موعظته، فإن في القرآن موعظة لا توجد في غيره، وفيه تأثير على القلوب، لا يحصل إلا به، وربما تفنن الوعاظ والمربون بأنواع المواعظ والتأثيرات وربما كان تأثيرها كبيراً، لكنه آني، أما موعظة القرآن فإنها باقية وثابتة ومؤثرة، فأعظم ما عالج به الإنسان قلبه كتاب الله ﷻ؛ ولهذا عتب الله تعالى على المؤمنين في أول الإسلام

ما أصابهم من فتور، فقال سبحانه: **[أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَع قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ]** [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود: " ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين "

فلا بد أن يحدث هذا القرآن خشية وخشوعاً في القلب، وكأن الله سبحانه وتعالى يحضهم ويحرضهم على تحصيل

هذا الأثر، ثم قال: **[وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيفُونَ]** [الحديد: ١٦]،

فحذر الله تعالى من مشابهة أهل الكتاب، الذين جعلوا كتاب الله وراءهم ظهرياً، ولم ينتفعوا به، فطال عليهم الأمد فقسست قلوبهم، فكتاب الله بين ظهرانيهم، لكنهم لا يرفعون به رأساً.

ثم أردف الله تعالى هذه الآية بقوله **[أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ]**

[الحديد: ١٧]، فلفت الأنظار إلى أن حاجة القلوب إلى موعظة القرآن، أعظم من حاجة الأرض الميتة إلى ماء

السحاب، فلئن كان ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها، فينبت الزرع، ويدرّ الضرع، فإن هذه القلوب أحوج إلى ما

^١ صحيح مسلم (٣٠٢٧).

أنزل الله من كلامه، من الأرض الميتة إلى المطر، والقرآن العظيم مبارك في آثاره فإنه يُحدث آثاراً حميدة في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الجماعات، وعلى مستوى الأمة بعمومها. فالمرء إن اعتصم به، والتزم بهديه أصلح الله له حاله، ورُزق الحياة الطيبة، واطمأنت نفسه، وهدأ باله، وحصل له نعيم الدنيا المتمثل بلذة مناجاة الله تعالى.

والمجتمع إن التزم بتعاليمه، وحدوده، وُقي من الشرور، والآفات، وحُفظت الأسرة من الخلاف، والفرقة، والنزاع، ورُوعيت الحقوق، والذمم. والأمة بمجموعها إن التزمت به حقق الله لها النصر والتمكين:

قال تعالى: **[الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ**

عَقِبَةُ الْأُمُورِ ۗ] [الحج: ٤١]

وقال سبحانه: **[وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ**

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۗ] [النور: ٥٥].

فالقرآن العظيم هو عهد ما بيننا وبين الله ﷻ إن نحن التزمنا به، وعظَّمناه، وقَدَّمناه، وجعلناه إماماً لنا، هداً لنا لأرشد أمرنا، وإن كانت الأخرى، فليس وراء ذلك إلا الضلال، والخسار، في الدنيا والآخرة.

ولا شك أن تلاوة كتاب الله، فهماً، وتدبراً، من أولى ما يكون، فإنه لا يخفى أن العلم الذي كان بين أيدي الصحابة ﷺ هو هذا العلم المنزل من السماء؛ (القرآن العظيم)، ولم يكن بين أيديهم شيء من هذه الكتب المطولات، ولا الشروحات، ولا ما تمتلئ به رفوف المكتبات، وإنما كان أحدهم يُقبل على هذا الدين بكليته، فيقرع سمعه القرآن، فيستحيل خلقاً جديداً، فيستيقظ من غفلته، ويصحو من غفوته، ويعلم سر خلقه، وكيونته، فيعود خلقاً جديداً، يُنشئه الله نشأة أخرى. وقد صنع الله بأصحاب نبيه ﷺ من الكرامة والخير والتمكين ما لا يخفى، قَالَ

تعالى: **[لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۗ] [آل عمران: ١٦٤]. فكانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء،

فبعث الله نبيه ﷺ في هذه الأمة العربية، التي كان بعضها يأكل بعضاً، وينزو بعضها على بعض، ويقتتلون السنين

الطوال، من أجل بيت شعر، أو شطره، أو لأجل بعير، ، أو ماء، أو مرعى ، أو نحو ذلك، فجعل الله تعالى منهم أمة قوية متحابه، وفتح بهم القلوب، قبل أن يفتح بهم الحصون. وفي سُنَيَات معدودة طَبَّقَ دين الله تعالى الأرض المعمورة، وكل هذا ببركة القرآن، تمثّلوه فرفعهم الله تعالى به، ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. ولذلك كان ينبغي لكل عاقل، لبيب، حازم، أريب، أن يتوجه إلى النبع الأول؛ النبع الصافي، ويدع السواقي، يبتدئ بما أنزل الله على نبيه من الكتاب والحكمة، فيعمد إلى الكتاب والسنة، يستقي منها. فمن وجد ماء جارياً وله فروع، فالكسول يذهب إلى أحد هذه الفروع الضحلة، فيملاً منها إناءه، ولكن صاحب الهمة يقول: مالي آخذ من هذه السواقي التي فيها شوب، وكدر، وطين،! بل أذهب إلى هذه العين المتفجرة، المتدفقة، الصافية، فأستقي منها.

فلأجل هذا، رأيت عقد دروس في تفسير القرآن العظيم، حتى نعيش في روضات أنيقات، من كلام الله ﷻ، الذي به صلاح القلوب، وصلاح الحياة كلها، ورأيت التركيز على التفسير العقدي، فإنه أساس بناء هذه الأمة، وسبب صلاح القلب، واخترت لهذا (جزء عم)، آخر أجزاء القرآن العظيم. لما تضمنه من تقرير الاعتقاد في العهد المكي. فكل سور هذا الجزء نزل بمكة باستثناء سورتين، هما سورة البيّنة، وسورة النصر. وما سواهما، فكله مكي. ويظهر فيه ملامح، وخصائص السور المكية من التركيز على مسائل الاعتقاد، والتوحيد، والمعاد، وأصول الإيمان، وما أحوجنا في هذا الزمان وفي كل زمان إلى استحياء هذه المعاني وتقويتها في القلوب والنفوس.

وكان من توفيق الله لي أن اشتغلت بتفسير هذا الجزء المبارك في دروس متتابعة في جامع أبي موسى الأشعري بمحافظة عنيزة سنة ١٤ هـ ثم قام بعض الطلبة، جزاهم الله خيراً، بتفريغ هذه الدروس من محفوظاتها الصوتية والعناية بإخراجها، وتم نشرها على حلقات متتابعة في موقع العقيدة والحياة الإلكتروني، ثم أعدت النظر فيها، وهذبتها، حتى استوت على هذه الصورة.

فما كان من خيرٍ وصواب فمن الله، وما كان من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان. ورحم الله عبداً أهدي إلي عيوبي ودلني على الصواب.

وقد سرت على الطريقة التالية:

أولاً: أبين مقاصد السورة، فإن الله سبحانه وتعالى ما جعلها سورة مسورة إلا ولها موضوع، أو موضوعات

مترابطة.

ثانياً: أقوم بتجزئة هذه السورة، إن كانت طويلة، إلى أجزاء ذات رابط موضوعي، فكل طائفة من الآيات تكون متناسبة فيما بينها عند التأمل.

ثالثاً: أشرع في التفسير التحليلي لهذه المقاطع، ببيان مفرداتها وما قيل فيها، وتراكيبها وما يفتح الله تعالى من علم وفهم.

رابعاً: أقوم باستنباط الفوائد العقديّة، والإيمانيّة، والتربويّة المميّزة، من هذا المقطع. وعلى هذا النهج أسير بعون الله تعالى.

والله المسؤول وحده أن يجعل عملي خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه حامداً لربه شاكراً لأنعمه مصلياً مسلماً على رسوله .

د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي.

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تَوَكَّلَا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾]

* هذه السورة العظيمة المسماة بسورة (النبأ) وتُسمى بسورة (عَمَّ) لها مقاصد يمكن أن نلخصها في أمور ثلاثة:

الأول: تعظيم شأن القرآن.

الثاني: تقرير الإيمان باليوم الآخر.

الثالث: الدعوة إلى التفكير في آيات الله الكونية.

وقد استهل الله ﷻ هذه السورة بصيغة الاستفهام [عَمَّ]؟ وهي اختصار لـ (عن ماذا)، ومعناها: عن أي شيء يتساءل المشركون. وقد وردت على صيغة الاستفهام الإنكاري، للنعي على فعلتهم، فكيف يسوغ أن يتساءلوا، وأن يختلفوا في أمر كهذا!

و[النَّبَأِ] المقصود به: الخبر. وليس أي خبر، بل الخبر الذي استطار واشتهر؛ وهو مأخوذ من النبوة، وهي ما علا، وارتفع من الأرض. ثم فخّم الله شأن هذا النبأ، فوصفه بأنه [العَظِيمِ]، والأمر كذلك.

وقد وقع الخلاف بين المفسرين؛ هل المقصود بالنبأ: القرآن، وهو قول مجاهد، أم المقصود بالنبأ: البعث بعد الموت، وهو قول قتادة. ويُعزز القول الأول، أنه وقع الاختلاف منهم في القرآن؛ فتارة يقولون: سحر. وتارة يقولون: كهانة. وتارة يقولون: شعر. فينطبق عليهم أنهم قد اختلفوا فيه. في حين أن البعث لم يقع فيه اختلاف بينهم؛ لأنهم قد أنكروه جملة وتفصيلاً. إلا أن القول الثاني وهو أن النبأ العظيم هو البعث ألقى بسياق السورة؛ فإن سياق السورة كما تقدم، يتعلق بأحوال الآخرة، والجنة، والنار، والفصل، والحساب.

ولو ذهبنا نُرجح بين القولين، لكان القول الأول أرجح؛ لأنه أعم، فإن القرآن يدخل فيه أمر البعث، فيكون متضمناً له. ويكون اختلافهم في الواقع، في مفردات هذا الأمر، فهذا أولى بالاختيار. وقد اقتبس الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- كتابه (النبأ العظيم) من هذه السورة.

ثم إن الله ﷻ لما ذكر تساؤل المشركين، أجاب عنه إجابةً مجملَةً لا تفصيل فيها، فقال: **[عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ٢] الَّذِي هُرِّفَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ٣]**، ولم يذكر تفاصيل اختلافهم، والجواب عنهم، بل أعرض عن ذلك. وكأن الأمر من البيان، والوضوح، بمكان لا يستحق أن يُتنازل مع المخالف، ولا يُتحدث معه فيه. ففي هذا الإعراض تفخيم لهذا النبأ العظيم، وترذيل لهؤلاء المنكرين له.

ثم تأتي آيتان فيهما زجرٌ، وقرعٌ لهم **[كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤] نُؤَكِّدُ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥]**. ما أشدَّ وقع هذه الجُمْل على القلوب!

* وكلمة **[كَلَّا]** أحسن ما يُقال في معناها هنا أي: ليس الأمر كما يزعمون، وما يدعون من إنكار البعث، أو الطعن في القرآن.

وأتى بالتكرار في قوله: **[نُؤَكِّدُ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥]**، للتأكيد. ولم يُبين الله تعالى ماذا سيعلمون، لكنه واضح من السياق، أنهم سيعلمون حقيقة هذا النبأ، وتحققه في الواقع، وذلك حينما يُعاينونه وبيصرونه، يقول الله ﷻ: **[وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ٥١] قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ٥٢]** [يس: ٥١-٥٢]، فهم سيعلمونه حينما يرونه عياناً بأبصارهم، ويعلمون أن وعد الله حق.

* الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: عظم شأن القرآن، أو البعث، وأنه من أصول الإيمان.

الفائدة الثانية: سفه المنكرين للأمور اليقينية.

الفائدة الثالثة: أن المخالفين للرسول مختلفون فيما بينهم، فليسوا على قلب رجل واحد، قال الله

تعالى: **[الَّذِي هُرِّفَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ]**، وقال سبحانه: **[ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ١٧٦]** [البقرة: ١٧٦].

فتجد كل من خالف الحق فرقاً وشيعاً وأحزاباً؛ لأن الحق واحد لا يتعدد، أما الباطل فشعب وظلمات، ولهذا تجد أن الله ﷻ دوماً يوحد الحق ويعدد الباطل قال تعالى: **[وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا]**

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [{الأنعام: ١٥٣} فالحق واحد، والسبيل واحدة،
والباطل أشلاء.

الفائدة الرابعة: استعمال أسلوب التهديد في الموعدة الإيمانية، [كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تَكَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾]،
فلا بأس للداعية في بعض المواقف أن يهدد المدعو بعقاب الله، وبشؤم صنيعه، وأن يُخوفه باليوم الآخر،
ويقول له: ويلك، كما قال الله ﷻ: [وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيَ أَفٍ لَّكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ
قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾] [الأحقاف : ١٧].